من أجل لبنان وسورية

لا أرى الحرب واقعةً من جديد في لبنان.

ستَحْصل تفجيرات، وربّما اغتيالات (أكتبُ بعد ثلاثة أيام من محاولة اغتيال مروان حمادة)، وستزداد بالتأكيد بَعْبصاتُ إسرائيل وأميركا. ولكنّي لا أجد قوًى أساسيةً داخلية تستطيع أن تمدّ أية حوادث أمنية محتملة بأسباب استمرارها وتفاقمها.

لستُ خبيراً إستراتيجيًا (والحمدُ للّه)، ولا أَعْرف كيف أَقْرع دربكةً (ناهيكم بطبول الحرب)، وصوتي ليس جميلاً... ولكنّه أفضلُ من نعيق البُوم الذي يبشّر بالكارثة (أو يحذّرُ منها) صباحَ مساء.

ومع ذلك فلا شكّ في أنّ الاحتقان سيّدُ الساحة اللبنانية. والسبب الأول، الظاهرُ على الأقلّ، هو التمديدُ لرئيس الجمهورية. فالإخوة السوريون لم يَجدوا إلاّ الرئيس لحّود ضمانةً للأمن القومي، وللعلاقات اللبنانية ـ السورية، فـ«تمنَّوْا» على أنصارهم من النوّاب اللبنانيين أن يصوِّتوا للتمديد، وحَصَلوا عليه... بالطرق الشرعية والبرلمانية. وطُزْ في مجلس الأمن!

ولكنْ هل كان من الضروري، من أجل هذا الموضوع غير الاستراتيجي حتمًا، أن نقف اليوم، نحن في لبنان وسورية، في مواجهة «العالم» ـ بصيغته الشوهاء المعولمة الحالية؟ وأين الحكمة في ذلك، ما دام لبنان يعجّ بأنصار «وحدة المسار والمصير» بين لبنان وسورية، وبينهم (سبحان اللّه!) مَنْ كان في الأمس القريب متحالفًا مع إسرائيل؟

أمّا بشأن وجود القوات السورية في لبنان، فأهلاً وسهلاً بها (وبالقوات المصرية والتونسية والهندية والدانمركية...) في بيتي (إذا وافقتْ عائلتي)، وعلى سطح بنايتنا (إذا وافق الجيرانُ)، إنْ كان ذلك في مصلحة المواجهة مع العدوّ الصهيوني. وأهلاً وسهلاً بها في أيّ موقع استراتيجي لبناني (آخر!) يحدِّده البلَدان. ولتتوثّق العلاقاتُ الاقتصاديةُ والتجاريةُ والثقافية. ولكنّ هذا كلّه لا يَكْفله ـ بالضرورة ـ عشراتُ آلاف الإخوة من الجنود السوريين (نعم، هُمْ إخوةٌ ورفاقُ سلاحٍ) في كلّ مكان من لبنان. ولا تَضْمنه، بالطبع، هذه الجحافلُ من الزعامات اللبنانية الفاسدة، النهّابة، القليلة الحياء، الطائفية، المذهبية، المدعومة من بعض السوريين والعرب، والتي لن تتورّع عن نقل البندقية من الكتف اليسرى العربية إلى الكتف اليمنى الأميركية خدمةً لمصالحها الأنانيّة.

هناك خلطٌ كثيرٌ في الساحة اللبنانية والعربية والعالمية في هذا الموضوع. هناك من يهاجم سورية لأنّها تتحدَّث عن الوحدة العربية، ولأنّها تقدِّم دعمًا لحزب اللّه وبعضِ فصائل المقاومة الفلسطينية، ولأنّها تغضّ النظرَ (أحيانًا) عن المناضلين السوريين المتسلِّلين لمقاومة الاحتلال الأميركي للعراق. ولكنّ هناك مَنْ يَعْترض على سياساتها في لبنان لأنَّ السلطات السورية مازالت من حيث المبدأ تَرْفض السياسةَ الأميركية، ومازالت تَرْفض التطبيعَ مع العدوّ الإسرائيلي، ومازالت تنادي بالوحدة العربية، ولأنّه لا حياة للعرب أصلاً في خضمّ التكتُّلات العالمية الكبرى المتربّصة بنا إلاّ بالوحدة... الديموقراطية والطوعية طبعًا.

إنّ الخيار هو خيار القيادة السورية أولاً وأخيرًا، مدفوعةً بمبادرات شعبية وطنية سورية ولبنانية على طريق التحالف الوثيق، الطوعي والحرّ. فإمّا أن تواصل سياستَها اللبنانية التي يستفيد منها ـ أكثرَ مَنْ يستفيد ـ الفاسدون والطائفيون؛ وإمّا أن تَحْزم أمرَها وتختطَّ نهجًا جديداً يقوّي منعةَ لبنان وسورية معًا، ويشكّلُ نموذجًا مصغّرًا للعلاقة المثلى بين أيّ بلديْن عربييْن متجاورين.

س. ب.

بيروت